

القضية الفلسطينية في أدب عبدالكريم الكرمي

مجتبي رحماندوست^١، مختار مجاهد^{٢*}

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران

٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة آزاد الإسلامية، فرع طهران المركزي

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٢/٢/٢٢؛ تاريخ القبول: ١٤٣٢/٧/٢٧)

ملخص المقال

يحمل عبدالكريم الكرمي الملقب بأبي سلمى من تاريخ الشعر الفلسطيني المقاوم مكانة بارزة، فقد عاصر عدة أجيال قبل النكبة الفلسطينية وبعدها وكان في طليعة الشعراء الواقفين مع الشعب الفلسطيني في نضاله. في زمن كان فيه الشعراء يدبجون القصائد الطوال في مدح الملوك والأمراء. وكان شعر عبدالكريم الكرمي صوت شعبه ولسان أمته، وكان له دور فاعل في مقاومة الاستعمار والصهيونية منذ نكبة بلاده بالانتداب البريطاني، فكان سلاحاً فتاكاً من أسلحة المقاومة ضد سياسة التهويد والقمع. وعاش أبو سلمى مرحلة ما قبل النكبة وأسهم بالكلمة المقاتلة في الكفاح الدائب ضد العدو، كما عاش مرحلة ما بعد النكبة كمتنقث ثوري ملتزم بتطلعات الجماهير، فقد ظل يحمل وطنه فلسطين في كل جارحة من شعره سواء أكان عن طريق التبشير بالثورة أم بالوصف أم بتخليد الشهداء، أم بتصوير لواعج الحنين في نفسه إلى حبيبته ووطنه أم بشعره الناقد الساخط ضد القيد وضد محن الانكسارات واحتلال الأرض والوطن. ديوان شعر عبدالكريم الكرمي مرآة بلده فلسطين وشعبه ومعاناة لا حدود لها وكذلك عظمة وعزة وفخار. إنه خير ممثل جدير لفلسطين وراو صادق لمعاناتها وألامها.

الكلمات الرئيسية

فلسطين، المقاومة، الكرمي، الثقافة الوطنية، العودة.

مقدمة

يقول محمود درويش «شعر المقاومة كما أفهمه، تعبير عن رفض الأمر الواقع، معباً بإحساس ووعي عميقين، بلا معقولية استمرار هذا الواقع وبضرورة تغييره والإيمان بإمكانية التغيير، ولكن لكي يفعل هذا الشعر مفعوله، عليه أن يكون عملية للتغيير فيتسلح بنظرية ثورية ذات محتوى اجتماعي» (الأيوبي، ١٩٨٩، ص ٩٤).

إن الشعر الفلسطيني يعكس واقع الحياة الفلسطيني في الداخل والمنفى، ويصبح هذا الشعر رافداً من روافد النضال القومي وسلاحاً في معركة التحرر من الاستعمار واسترداد الحق السليب في فلسطين و«كان كنفاني ذهب إلى أن شعر المقاومة في فلسطين المحتلة له جذوره قبل العام ١٩٤٨م، فإننا نجد النقاش يدرس الجذور هذه في فصل خاص تحت عنوان شعراء وشهداء ويقف أمام إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود وعبدالكريم الكرمي ليبين صلة اللاحق بالسابق أي درويش وجيله، بطوقان وجيله» (الأسطة، ٢٠٠٨، ص ٣٣).

وكان أبو سلمى واحداً من الشعراء الفلسطينيين الذين تصدوا لحمل دور المرشدين لشعبهم وأمتهم، فكانوا يحذرون الناس ويوقظونهم، ويفضحون أمامهم المؤامرات الشريرة على وطنهم. وبذلك غدا الشعر الفلسطيني معلماً من معالم الوعي العربي في فلسطين ومظهراً من مظاهر يقظة أهلها.

ويجد الدارس لبواكير شعر أبي سلمى الوطني أنه كان تصويراً أميناً للحالة السيئة التي تردى إليها وطنه بعد أن بدأ تنفيذ المؤامرة الاستعمارية الصهيونية ضد بلاده فلسطين وشاركت عصابة الأمم في التغطية على الاستعمار وإخفاء حقيقته.

وما كتب عن عبدالكريم الكرمي ما يعدو مجموعة من المقالات المتفرقة في المجالات الأدبية العربية أو جزءاً من دراسة شاملة للأدب والشعر الفلسطيني بعامة. وهذا الشاعر على أهميته لم تدرس شعره المقاوم وخصائص أسلوبه دراسة علمية دقيقة كما يليق بشعره المقاوم.

من أجل ذلك فإن دراسة القضية الفلسطينية في الشعر المقاوم لعبدالكريم الكرمي الذي عاش النكبة بكل أبعادها وآثارها وكان خير من يعبر عنها كشاهد وشاعر في الوقت ذاته،

بصورة متكاملة، تفيد في إلقاء مزيد من الضوء على مراحل النضال الفلسطيني باعتباره جزءاً من حركات التحرر على الصعيدين العربي والعالمي، فضلاً عما يمكن أن تفيد مثل هذه الدراسة في إلقاء الضوء على أدبه وممارساته.

أما بالنسبة للدراسة، فقد اشتملت على مبحثين، تناولنا في المبحث الأول مولد الشاعر ونشأته ومؤلفاته وشخصيته الفنية، وعالجنا في المبحث الثاني القضية الفلسطينية في شعره، كالتمسك بالأرض والشوق والحنين للوطن والصمود والمقاومة وذكر خيانة الملوك وحبّه للمدينة.

عبدالكريم الكرمي مولده ونشأته

ولد عبدالكريم بن سعيد بن علي بن منصور الكرمي ذات يوم تموزي في مدينة طولكرم إحدى مدائن فلسطين عام ١٩٠٩م. أما والده فهو الشيخ سعيد بن علي الكرمي العالم المشهور وأحد طلائع رجال النهضة العربية المعاصرة الذي لم تعرف طريقاً الى الخوف والتخاذل ولقد تحمل في سبيل ذلك النفي والسجن، وكان ضمن القافلة الأولى التي حكم على أفرادها بالإعدام في محكمة عالية ثم أُبدل بالسجن المؤبد نظراً لشيخوخته. وكان فقيهاً بالدين واللغة، عالماً بأسرارها، أديباً يحسن الخطابة وشاعراً مجيداً كما كان مرجعاً يعتمد عليه ويستشهد بأقواله وآثاره. فتح أبو سلمى عينيه على ظلمات مرة انتابت قومه في كافة أمصارهم على يد الأجانب الذين صبّوا جام الويلات والمصائب على العرب. وترعرع في كنف والده الذي كان له تأثير كبير على حياته فقد كان شديد العطف عليه ويحرص على أن ينشأ على أفضل الصفات وأكمل السجّايا وتغذى أبو سلمى بلبان العلم والأدب وازدهر تحت ظل مجلس والده الوارف.

يقول عجاج نويهض في كتابه رجال من فلسطين «إن الشيخ سعيد الكرمي وأبناءه يؤلفون رهطاً له وزنة في حركة الأذهان في فلسطين ولا نكاد نعلم أن بيتاً آخر في هذه البلاد قام فيه الأب وتبعه على دروبه أبنائه في حياته ومن بعده كما قام هذا المشعل» (نويهض، ١٩٨١، ص ٩٨). وقد توزعت مراحل دراسة عبدالكريم الكرمي بين طولكرم وبين السلط في الأردن ودمشق في سوريا. عاد أبو سلمى في عام ١٩٢٧م إلى فلسطين وعين معلماً في مدارس مدينة القدس وهنا يبرز عامل هام في حياته أدى إلى إقالته من عمله الرسمي ذلك أنه نظم قصيدة بعنوان (يا فلسطين) هاجم فيها السلطات البريطانية وهذه القصيدة أدت إلى عزله:

جبل المكبر طال نومك فانتبه
 قم واسمع التكبير والتهليل
 جبل المكبر لن تلين قناتنا
 ما لم نحطّم فوقك الباستيلا
 (الكرمي، ١٩٧١، ص ٥٥)

وبعد أن فقد أبو سلمى وظيفته كمعلم انضم إلى هيئة الإذاعة الفلسطينية مساعداً للشاعر إبراهيم طوقان الذي كان يتولى منصب مدير البرامج العربية. في عام ١٩٤٣م قصد أبو سلمى مدينة حيفا حيث افتتح له مكتباً ليزاول مهنة المحاماة، وبدأ عمله بالدفاع عن المناضلين العرب المتهمين في القضايا الناجمة عن الثورة الفلسطينية التي نشبت في فلسطين سنة ١٩٣٦م واستمرت حتى سنة ١٩٣٩م. وأصبح في فترة قصيرة محامياً مرموقاً في فلسطين. نزح أبو سلمى في سنة ١٩٤٨م إلى دمشق الذي طالما انتقل إليه وهناك زاول مهنة المحاماة والتدريس في تجهيزاتها، ثم عضواً في مجلس التأديب ثم التوجيه والتوعية في وزارة الأعلام السورية وأسهم في العديد من المؤتمرات العربية والآسيوية والأفريقية والعالمية. وفي عام ١٩٨٠م وافته المنية وشهدت دمشق في وداعه واحداً من أكبر مواكب التشييع في تاريخها وبدت مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك وكأنها ساحة يوم القيامة.

مؤلفات عبدالكريم الكرمي

المأساة بكل وجوها تطل علينا من خلال كل آثار عبدالكريم الكرمي شعراً أو نثراً وإن كل قصيدة عند الشاعر ثورة نفسية عارمة ودفقة روحية مضطربة تتفجر عن صراع روحي يرسم لنا خطوط المأساة التي يعيشها كل فلسطيني حالم بالعودة إلى أرضه ووطنه. وإذا ما أخذ اليأس أحياناً منه فإنه يظل يتشبث بأصابع نور الفجر ليمسك بها ويضمّ وطنه وحببيه إلى صدره من جديد.

كان لأبي سلمى قصائد جميلة عن فلسطين وعرف واشتهر بديوانه المشرد. له خمسة دواوين تحت عناوين: ١. المشرد، طبع عام ١٩٣٥م. ٢. أغنيات بلادي، طبع عام ١٩٥٩م. ٣. أغاني الأطفال، طبع عام ١٩٦٤م. ٤. من فلسطين ريشتي، طبع عام ١٩٧١م. ٥. ديوان أبي سلمى الأعمال الكاملة، طبع عام ١٩٧٨م. وثلاثة أعمال نثرية، تحت عناوين: ١. كفاح عرب فلسطين، طبع عام ١٩٦٤م. ٢. أحمد شاكر الكرمي سيرته العلمية والسياسية، طبع عام ١٩٦٤م. ٣. الشيخ سعيد الكرمي سيرته العلمية والسياسية، طبع عام ١٩٧٣م.

الخصائص الفنية في شعر أبي سلمى

عاش أبو سلمى مع شعبه وانغمس في كفاحه، لم يكن متفرجاً ولا عابثاً بل كان محبباً، التزم بالأرض وبالشعب، عشق الكرمل والبحر، ولهذا غنى للأرض والشعب والجمال غناء المحب العاشق والتزم بالشعب والقضية الفلسطينية واتخذ هذا كله عند أبي سلمى منحى واضحاً. وشخصية أبي سلمى في كل حالاتها وأطوارها تبرز واضحة جلية في شعره وهي شخصية أليفة ذات أنس ومحبة ورقّة متناهية، تتبدى في رقة ألفاظه في أشعاره، وفي حسّه المرهف وتصدر عن ذلك نزعة الشعرية إلى الغزل والتشبيب:

تسائل كيف عرفت النسيب وممن تعلمت شعر الغزل

تعلمته من شذا وجنتيك إذا ما تفتح زهر الأمل

(الكرمي، ١٩٥٩، ص ٥٦)

ولعل من الغريب أن يجمع إنسان بين الرقة والعنف الثوري ولكنه كذلك فإذا تغزل ذاب رقة، وإذا غنى لبلاده أنشد بعنف ثوري وبصراحة لا تخشى في الحق لومة لأثم.

لقد كانت لأبي سلمى طريقتة الخاصة في إبراز عواطفه وانفعالاته وملائمته بين موضوعات شعره وألفاظه وقوافيه. «فهو يعتمد إلى طريقة بناء الجملة من حيث صيغ الاستفهام والتعجب والنداء والتمني وإجادة استخدام الأسلوب الإنشائي الذي هو أكثر ملائمة من الأسلوب الخبري الذي يحمل التقريرية» (السوافيري، ١٩٧٣، ص ٢٦٤).

وهو يكرر استعمال ألفاظ يعينها في أبيات عديدة وهذا يظهر بوضوح خاصة في الشعر الحنين والغربة وعلى سبيل المثال فقد استعمل لفظة فلسطين ٧٧ مرة في مجموعاته الثلاث، كما استعمل لفظة الشعب ٤٧ مرة ولفظة الحب والهوى ٦٠ مرة ولفظة القلب ٤٠ مرة ولفظة الوطن ٣٠ مرة. وقد يكرر الشاعر لفظة يعينها في أول أبيات متعددة مثل:

شعبي هنا وهناك ثائر فجر اللهب اليوم سافر

شعبي أطل مع الصباح مخضب الجنبات حاسر

شعبي الذي نشر اللهب من العراق إلى الجزائر

(الكرمي، ١٩٥٩، ص ١٣٥)

وهذا التكرار في كل حالاته يعبر عن انفعاله وتأثره وهذه الظاهرة كما تقول نازك الملائكة

«هي تطور ملحوظ في أساليب التعبير الشعري فالتكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها وهو يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها وهو بهذا ذو دلالة نفسية قيمة» (الملائكة، ١٩٦٥، ص ٢٤٢).

وللشاعر ميل إلى استعمال النقد الساخر العنيف كما في قوله:

أرانب أن تعرض أجنبي	وهم أبداً على أهلي أسود
تمر مواكب لا روح فيها	أعياد وليس هناك عيد
وأبواق وليس لها رنين	وأسماء وليس لها وجود
وأجناد تموج ولا انتصار	وأحرار وكلهم عبيد

(الكرمي، ١٩٦٣، ص ٨٨)

أما مذهبه في النظم فقد كان واضحاً في شعره فهو يكره الغموض واللبس وينفر من التعقيد والضبابية. و« ليس من شك أن أبا سلمى في مذهبه هذا متأثر بطبيعة الشعر العربي الواضحة فالوضوح من أهم ميزات الشعر العربي والشاعر العربي قلماً يكسو فكره غموضاً بل يعبر عما يريد بوضوح ويسر» (ضيف، ١٩٦٢، ص ١٨٢).

نظم أبو سلمى أغلب شعره على النهج العربي القديم من وحدة البحر ووحدة الروي والقافية لكنه نظم جزءاً منه على نهج الموشحات والمسمطات كما نظم أيضاً قصائد متغيرة الروي والقافية ما بين مزدوجات ومربعات ومخمسات ومقعطات، أما الأوزان فالحقيقة أنه لم يخرج على الأوزان الخليلية.

في هذا المجال اعتقدت سلمى خضراء الجيوسي « يطرأ نوع من الانفصال في قصائد أبي سلمى؛ انفصال التجربة عن شكلها لتمهد مسيرة تطور الشعر في تجربته وتجربة معاصريه وهذا يعني ترسيخ روح التغيير في شعره إثر اكتشاف التناقض في القصيدة العمودية الملتزمة بعمود الشعر وعمود العروض فحدث له التنبه عندما تخلّص من الانغماس الكثير في المواقف الشعرية التقليدية بفعل تعليمه العالي ودراسته للفرنسية والإنكليزية ثم نزوحه بعد ذلك عن فلسطين عام ١٩٤٨م حيث انخرط في الحياة الأدبية النشطة في دمشق ووقع تحت تأثير التجارب السورية واللبنانية» (الجيوسي، ٢٠٠١، ص ٣٦٨).

وإذا كان أبو سلمى يتمسك بالشكل الشعري القديم في أشعاره فإن هذا ينطوي على عنصر تحدٍ لحصارة غازية، ممثّل في انفعال الحساسية الشعرية وإحلالها تجربة القديم في الجديد.

«تتكرر هذه الحالة في شعر أبي سلمى في هذه الفترة وهو معلم أساسي في تجربته الشعرية تقوم على الموازنة بين نقيضين: القديم والجديد، لأنه في تجربته الشعرية يزاوج بين تجربتين: تجربة القديم بصفاته وتجربة الجديد المتأثرة بروح الموشحات الأندلسية الشكلية ويتمسك أبو سلمى بالشعر القديم وأغراضه منه يعبّ وعلية يتكئ وتتكرر لديه الألفاظ والتعابير المألوفة كما ترد في الشعر القديم ومن ذلك الغص الميَّاد، الهجير، الأردن، الأغمد، الكريهة...» (عطوات، ١٩٩٨، ص ١٢٤).

من جهة المعجم الشعري فشعر أبي سلمى معاصر من خلال مفرداته اللغوية كما أنه معاصر في معظم نماذجه، فهو يمتلك معجمه الخاص القريب من معجم الكلاسيكيين الجدد والمحتوي أيضاً على قدر غير قليل من ألفاظ الرومانسيين ولعل احتفاظ أبي سلمى بهذا المعجم المشترك يعود الى نفس السبب الذي جعله لا يفرق في رومانسيته قريباً من الجماهير قادراً على التعبير عن أحلامها في نفس الوقت الذي في كلاسيكيته ليكون قريباً من عصره ويعيش مع قضاياها. «اقتربت لغة شعر أبو سلمى من العامة وشاع في شعره بصورة واضحة معجم الطبقة العاملة ولاسيماً في القصائد التي نظمت في مناسبات تتصل بهذه الطبقة. فقد دخلت ألفاظ المنجل والمطرقة والعامل وسوى ذلك من ألفاظ ومصطلحات في شعره» (معجم البابطين لشعراء العرب المعاصرين، ١٩٩٥، ج ٦، ص ٢٦).

وقد نشأت شعبية أبي سلمى عند المستمعين بسبب قصائده المرصعة بأسماء القرى والأنهار والجبال والشواطئ الفلسطينية، ولما في هذه القصائد من لمسة رومانسية تتبدى في مزجه حبّ الوطن بحبّ المرأة التي سيلتقيها كما يقول في إحدى قصائده:

وفي النسيمات التي شرّدت	من ربوات القدس والجرمق
سنلتقي ما فوق أرض الحمى	ننشُر من أنفاسنا ما بقي
في الكرمل المحزون بعد النوى	على رمال الشاطئ الأزرق

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٤٠١)

«المرأة التي يخاطبها أبو سلمى في أشعاره تبقى مخلوقاً مجرداً لا اسم له، وشخصية يحنّ إليها بعيداً عن أي تجربة مجسّدة وترتبط بالشاعر في المصير المشترك وهو النفي» (الجيوسي، ١٩٩٢، ص ١٨).

القضية الفلسطينية في أدب أبي سلمى

نظم أبو سلمى شعره في مجالات مختلفة ففيه الشعر الوطني والشعر الإنساني والاجتماعي والرثاء والأناشيد والحب والغزل وغير ذلك من فنون الشعر لكن كلهم ذو صبغة فلسطينية.

وقد نظم عبدالكريم الكرمي قصائد رائعة في القضية الفلسطينية كل واحدة منها كأنها لوحة رسمتها يد فنان عبقرى فلقب بزيتونة فلسطين وهو لقب يشير إلى التصاقه الحميم نفسياً وثقافياً بقضية بلاده كما انخرط في صفوف النضال الوطني الفلسطيني في فلسطين:

غدا سنعود والأجيال تصغي نعود مع العواصف داويات
إلى وقع الخطى عند الإياب مع البرق المقدس والشهاب

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ١٧٣)

وقد بدأ أبو سلمى الكتابة في الثلاثينات متغنياً بشجاعة الفلسطينيين ومقاومتهم مؤكداً على وحدة الفلسطينيين العرب وقد عاش الشاعر بعد سنة ١٩٤٨م منفياً في دمشق يعبر عن آلام الفلسطينيين وآمالهم في كل أنحاء العالم وتعاضمت شهرته مع مر السنين على مشاركته الفعلية في الحياة السياسية فقد كانت قصائده البليغة المشحونة بالعاطفة تتبأ بمصير الفلسطينيين وكانت الشجاعة والتضحية بالنفس صفتين ملازمتين له في شعره دفاعاً عن الشرف والوطن. «الموضوع السياسي الغالب في أشعار أبي سلمى ضمن له مكانته الخاصة، فالسياسة تطغى في أشعاره على كل ما عداها ولكن انشغاله بها كان من قبيل الانشغال المعروف والمقبول والمرغوب، ولا يظهر في شعره ميل للسير» (الجيوسي، ١٩٩٢، ص ٨).

فلسطين في شعر أبي سلمى ليست بقعة جغرافية فحسب، بل هي أيضا حلم الثائرين كلهم لأن حالات الاحتلال والظلم والغزو القائمة في فلسطين يجب أن تكون بؤرة اهتمام كل الثوار. فلسطين على الرغم من صغر مساحتها محملة بتراث من النضال عبر سنوات مريرة طويلة وهذا هو شعبها يواصل زحفه على لهب انتفاضاته المتواصلة مصمماً على تحقيق النصر على الغزوة الصهيونية والاحتلال وفي ظروف صعبة وشاقة:

فلسطين يا حلم الثائرين فلسطين يا وطن الخالدين
نحن الذين نشور على الظلم والجهل والفقر في كل حين
ومبدؤنا عالم واحد وتخليد حريّة العالمين

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٤٠١)

وقد تناول أبو سلمى آلام اللاجئين المادية والنفسية فيقول في قصيدته النازحون:

لغة الدَّمع أم بيان الجراح	وصدى اليُتم أم أنين الأضاحي
يا فلسطين أين تترك العذراء	تفضُّها يمد المجتاح
يا أحبَّاي والفراق طويل	ما على القلب إن بكى من جناح
أيُّها النازحون ماذا لقيتم	غير الدنيا الآلام والأتراح

(الكرمي، ١٩٧٨، ص١٦٩)

لا عجب أن يغني أبو سلمى أصدق الحان النكبة وأعمقها وجداناً وعاطفةً لأنه صدر فيها عن الواقع وطنه وحكي عن التجارب التي عاشها بنفسه والمآسي التي رآها بعينيها.

و«إن مجموع أشعاره تشكل الحس المقاوم تاريخياً داخل الأرض الضائعة قبل أن تضيع وفي المنفى حيث كان أبو سلمى أول من جرَّوا على كشف وتعرية ملابس القضية، إن أبا سلمى يجسد الشاعر في التحامه النضالي بقضية شعبه، حيث يصبح الشعر وسيلة من وسائل النضال وتحثي الفوارق بين وظيفة الشاعر في مجتمعه وبينه كخالق ومبدع نصوص» (فخري صالح، ١٩٩٩، ص١٠)

يأتي الأثر الديني وخاصة الأثر الإسلامي على رأس المؤثرات في الشعر الفلسطيني المقاوم لعبدالكريم الكرمي. وكان قد تأثر بالقرآن الكريم كعامل ديني كما تأثر منه كعامل أدبي، حيث وجدنا أثر اللفظ والتعبير القرآني يرد بكثرة في شعره المقاوم. وعلى سبيل المثال فهو يستغل قوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (سوره فتح، آية ٢٩) داعياً إلى مشاهدة ذلك الأثر فوق جبين الشهيد في قوله:

قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السجود (الكرمي، ١٩٧٨، ص٢٥)

وفي دعوته إلى الثورة الحمراء من أجل التحرير، تلك الثورة التي:

أيان نسأل نارها فتجيبنا هل من مزيد (الكرمي، ١٩٧٨، ص٢٤)

والتي شبهها بجهنم التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (سوره ق، آية ٣٠)

كذلك كان لديوان الشعر العربي القديم دوره كعامل مؤثر في أشعار عبدالكريم الكرمي وتأثر الشاعر في قوله:

ومشار النقع فوق المنحنى وعلى السفح انثنت خيل الطراد
(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢٨٠)

يقول بشار بن برد:

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
(الخفاجي: ١٩٨٢، ص ٣٣)

وتبدو ملامح الموقف المهزوم في بعض قصائد عبدالكريم الكرمي كقصيدة «بعد الفراق» و«التربة السمراء» وكان صوت أبي سلمى من بين الأصوات التي كانت مدوية إبان ثورة سنة ١٩٣٦م حتى عام ١٩٣٩م والذي نشر قصيدة «لهيب القصيد» شرراً كذف بها المستعمرون والصهاينة والزعماء العرب. وهو في هذه المرحلة يضعف أمام الهزيمة ولكن النفس الثائرة تظل تحن إلى القوة والبطولة حتى في مواقف الهزيمة كالبركان الهادئ الذي لا يلبث أن يعاود تدفق حممه. ففي بعض قصائد ديوانه المشرد مثل قصائد «المشرد»، «التراب الخصب» و«داري» يقترن موقف الهزيمة بالإدانة والحنين أو يقترن موقف الهزيمة بالغضب في قصائد أخرى مثل «الأفق المعطر»، «الشعب» و«شعاع» وغيرها لا يلبث أن يتحول إلى أمل وتدفع نأثر وحماس في «سنعود» و«بقايا أهلي»، «أرضنا تنتظر»، «النهر الباكي» وغيرها ويتخذ شكلاً أقرب إلى الوعي السياسي في قصيدته «رجال الفكر» دون أن يفارقه موقف الهزيمة.

وإذا كنا أشرنا إلى الموسيقي في شعر الشاعر المقاوم عبدالكريم الكرمي، فالموسيقي في شعره هي رنة روح على أوتار قلبه، وكلما كانت العاطفة متأججة في الصدر كلما ساق لها الشاعر من الكلمات ما يؤلف لحناً جميلاً تسكبه حركاتها في العبارات موسيقي جميلة تجسد انفعالات النفس المضطربة. فكل قصيدة للشاعر تعزف لحناً جميلاً يختلف عن غيره في القصائد الأخرى، حتى كأنك أمام جوقة موسيقية تمتعك بمختلف الألحان. فالموسيقي الشعرية عند الشاعر تنسجم انسجاماً تاماً مع القافية مما يزيد الإيقاع:

دمي روى فلتصمت الألسن أروع شعر القلب لا يعلن
ما أبلغ الصمت إذا ما روى مأساة شعبي، قلبي المثخن

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٣٦٢)

في هذه الأبيات ختم الشاعر كل بيت بقافية النون المناسبة لموضوعها وهو الحزن والألم لفراق الوطن الحبيب وكثرة الجراح والمآسي التي مر بها الشعب الفلسطيني وحزناً على

الواقع الأليم الذي يعيشه شعب الكرمي من خيانات وتشريد واضطهاد.

إن كل قصيدة من قصائد الشاعر روضة غناء ينثر فيها من ورود حيفا وكروم ناصرة
وزيتون يافا:

من فلسطين ريشتي وبياني	فعلى الخلد والهوى يدرجان
من فلسطين ريشتي ومن الرملة	واللد صغت حممر الأغاني
من شذا برتقال حيفا قوافيها	ومن سهل طولكرم المعاني
أحرفي من قطاع غزة	والشاطئ تمشي مصبوغة الأردن

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٣٠٩)

ويتسائل أبو سلمى عن موعد انفجار البركان الثوري الذي يفجره الشعب الفلسطيني ليحقق
الانتصار على القوى الباغية ويتم التحرير:

اللاجئون والرماد فوقعهم	متى متى بركانهم ينفجر
هذي فلسطين تنادي شعبها	السفح والربوة والمنحدر

(الكرمي، ١٩٧١، ص ١٥)

ويواصل دعوته إلى الثورة مؤكداً أن المآسي التي عاناها الشعب الفلسطيني والدماء التي
بذلتها في كفاحه الطويل المرير قد وحدت بين الشعب قدراً ومصيراً:

وحدتنا دماؤنا في الميادين	وماض دام لنا ومصير
داميات الحدود على خلل الد	دمع تنادي متى يكون العبور

(الكرمي، ١٩٧١، ص ١٥)

ولقد كان أبو سلمى سابقاً في استجلاء إحباطات الواقع العربي مقررراً أن على حاملي ألوية
العار والهزيمة أن يتخلوا عن حومة الميدان ويسلموا الشعب أمره، ويتسائل أبو سلمى عن موعد
تفجير الثورة الفلسطينية التي يرى أنها البديل الوحيد لغسل العار الهزيمة وتحرير الأرض المغتصبة:

أيها الحاملون ألوية العار	تخلّوا عن حومة الميدان
سلموا الشعب أمره واستريحوا	وا يا حماة الأصنام والأوثان
ليت شعري متى يفجر شعبي	في فلسطين ثورة البركان
إن جيشاً يرجى لتحرير شعب	غير جيش الكرسى والصولجان

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٣٠٩)

وتغدو المقاومة الفلسطينية التي يرمز لها أبو سلمى بالنسر الأمل المرجي بعد مراحل
الذهول والحزن والحنين والإحساس بالتمزق والانشطار، ثم موجة التي غمرت النفس العربية
بعد حزيران، ويطلب الشاعر من النسر أن يمد جناحيه على الكرمل واللد والرملة والمجدل،
وأن ينطلق ليرف على أرض الوطن ويحمي أرض الحمى لتنجلي الظلمة:

مدّ جناحيك على الكرمل	واللّد والرّملة والمجدل
يا أيّها النّسر الحبيب انطلق	رفاً على موطنها الأوّل
تجددّت فيك أمانينا	فأنت دنيا بالمنى الحفّل
حرر فلسطين وأرض الحمى	وقل لهذا الليل أن ينجلي

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢٣٢)

ما يلفت النظر في شعر الكرمي نقده للساسنة المتخاذلين وللشعوب المتباطئة للنصرة وتناقلهم
عن واجبهم الوطني المقدس ورسمهم الخطوط العريضة لوجه الاستعمار. فحياة الكرمي
عاشها في فترة أزداد فيها التخاذل العربي فالكرمي يبدو متذمراً لحال العرب فقد أصبحوا
أعداء يقتل بعضهم بعضاً بينما هم يحرمون سفك دماء الطغاة:

قالوا الملووك، وإنهم	لا يملكون سوى الهبيد
دكّت عروش زينوها	بالسلاسل والقيود
وأذلّهم وعد اليهود	ولأذلّ من اليهود

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢١٩)

ويسخر عبدالكريم الكرمي من الدول العربية التي أبعدت الفلسطينيين عن الساحة المعركة
في الوقت الذي لو سمح لهم بحمل عبء القضية أو المشاركة في واجب الدفاع عن وطنهم
لحققوا النصر أو لنالوا شرف الشهادة وغسلوا بدمائهم عار القضية:

لو حملتم عبء القضية أنتم	وكفرتهم بعصبة الأشباح
لجلوتم عرائس المجد فوق الأفق	بين السنن وخفق الوشاح
ودروب العلى أضاءت وقد سرتهم	وراء الظّبي وخلف الرّماح
أو دفنتم هناك طيّ ترابٍ	طهرته الدماء قبل البراح

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢١٩)

ويواصل أبو سلمى بأسلوبه الساخر فضح تهاون زعماء البلاد وتآمر الحكام العرب فيقول

في قصيدة المشرد:

يا رفاق الدَّهر هر شرِّدكم	في الـورى عـدوٍ أم محببٌ
زعماءٌ دنسوا تاريخكم	وملوكٌ شرِّدوكم دون ذنب
وجيوشٌ غفر الله لها	سلّمت أوطانكم من غير حرب
دولٌ تحسبها شـرقيةً	وإذا أمعنت فالحاكم غربي

(الكرمي، ١٩٧٨، ص١٥٦)

وبهذا ينفذ الشاعر إلى ضمير الشعب الفلسطيني ليجوس فيها واقعها الاجتماعي والسياسي ليستلهم من هذا الحال مادة لشعره الغاضب.

وبعد ذلك يتحدث الكرمي عن الوعود التي قطعها الملوك العرب لتحرير فلسطين، وقد تكشف الحقائق ببيع المتخاذلين لضمائرهم وحتى الحقوق الأساسية، كل ذلك تنازلوا عنه لإرضاء الدولار:

قال الملوك: غداً نحمي الديار	ليت الأذلاء ما قالوا وما فعلوا
قالوا: الكرامة! قلنا أين صاحبها؟	قالوا الرجولة! قلنا: أيهم رجل؟
بَاعُوا فِلَسْطِينَ فلتهنأ ضَمَائِرُهُمْ	أما تَرَاهَا على الدولار تشتعل

(الكرمي، ١٩٧٨، ص٢١٧)

فهم ناقضون لعهودهم. فقالوا سترجع فلسطين لشعبها ولكن بعد أن بيعت أشلاؤها في

المزاد وقبض الثمن:

يَتَبَارُونَ بِالْخِيَانَةِ تِيهًا	بالتِّيهِه الجُنَاة بالأَصْفَادِ
ويجهم كيف يرجعون فلسطين	وبَاعُوا أشلاءها بالمزاد

(الكرمي، ١٩٧٨، ص٢١٠)

أنشد عبدالكريم الكرمي قصيدته الشهيرة «لهب القصيد» إلى ملوك العرب، وأصبح يُعرف

بها وتعرف به:

أنشر على لهب القصيد	شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يرددها الزمما	ن غدا إلى أبـد الأبيد
حآقت دمماء الثائرين	على العلوج بأن تسودي
والثورة الحمراء نطعم	ها الجسوم مع الكبود

أَيَّانَ نَسَّأَلُ نَارَهَا فَتَجِيبُنَا هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢٥)

وقد حمل أبو سلمى في تلك القصيدة الحكام العرب جزءاً كبيراً من المسؤولية في تشريد الشعب الفلسطيني وفقدان وطنه.

إن المدينة والتركيز على ما فيها من نواح سلبية موضوع بارز في الأدب العربي الحديث خاصة في الشعر. وكان هذا الموضوع من أبرز ما تناوله الشعر الحداثي حيث امتزجت تجربة الشاعر عموماً في المدينة المخيفة بالتجربة الجماعية الساعية إلى فهم أعمق لمعنى الصراع بين المدينة والريف.

أما المدينة في شعر عبدالكريم الكرمي لم تكن يوماً ثمود أو سدوم أو عمورة كما لم تكن يوماً مصدر تهديد أو مستودعاً للقدارة والفساد بل كانت دوماً المدينة الضحية، ولم يكن الناس فيها يشعرون بالاغتراب والاستلاب لأنها إما مدينة محاصرة يحتلها الفاصبون أو مدينة فقدتها أهلها وفي كلا الوضعين لا يمكن أن يكون ثمة اغتراب:

كَلَّمَا حَارَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ أَحَبَّبْتُكَ أَكْثَرَ أَيُّ تَرْبٍ غَيْرَ هَذَا التُّرْبِ مِنْ مَسْكَ وَعَنْبَرٍ
أَيُّ أَقْفٍ غَيْرَ هَذَا الأَقْفِ فِي الدُّنْيَا مَعْطَرٌ كَلَّمَا دَافَعْتُ عَنْ أَرْضِكَ عَوْدُ العُمَرِ يَخْضَرُ
وَعَلَى شَطَائِبِهِمَا أَمْوَاجٌ عَكَا تَتَكَسَّرُ مِنْ بَقَايَا دَمْعِنَا هَلْ شَجَرُ اللِّيمُونِ أَزْهَرُ

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٣٧٥)

والرعب المتصل بالمدينة الفلسطينية في شعر أبي سلمى رعبٌ خارجي لا يصيبها على أيدي بنيتها كما يحصل في المدن العربية الأخرى بل تصيبها قوى خارجية معتدية. وهي ليست مدينة ضحية فقط بل هي أيضاً مكاناً للبطولة وموطن للمقاومة والنضال الوطني:

لَمْ يُحَرَّرْ وَطَنٌ إِلَّا إِذَا الشَّعْبُ تَحَرَّرَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ دَارٌ وَأَحْلَامٌ وَمِزْهَرٌ
وَأَنَا الحَامِلُ تَارِيخِ بِلَادِي أَتَعَثَّرُ وَعَلَى كُلِّ طَرِيقٍ لَمْ أَزَلْ أَشَعْتُ أَغْبَرُ
كَلَّمَا رَفَّ عَلَيَّ اسْمُكَ كَانَ الحَرْفُ أَشْعَرَ وَحُرُوفِي تَزْرَعُ لِأَشْوَاقٍ فِي كُلِّ مَعْسَكِرٍ

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٣٧٥)

ويقول في مكان آخر:

قسماً بالثرى الحبيب خضيباً ورفاق السلاح منّا شهود

لَنْ يَمَرَ الْمُسْتَعْمَرُونَ عَلَى قُدْسِ
أَرْضٍ وَلَنْ يُمَرَّ الْعَبِيدُ

(الكرمي، ١٩٧٨، ص ٢٣٣)

وشعر عبدالكريم الكرمي في الشتات يعبر عن إحساس عميق بالمكان وعن ارتباطه به غالباً ما يصور في مواجهة مشاهد من المنايا. و«عندما يركّز أبو سلمى على استعادة مكان ثابت فإنه يفعل ذلك على مهاد متنقل من المنفى يطفو في عالم كثيراً ما يتسم بالعداء ونرى في شعره صورة متصلة لمكان معرض للمخاطر يتحرك فيه الشاعر أبداً نحو مكان محدد في وطنه الأصلي يجد فيه الأمان والاستقرار المنشودين. يستحضر أبو سلمى ذلك من لمحات الشعر العربي القديم حيث يصور الشاعر الصحراء التي لا حدود لها تصويراً حياً يبعث الرهبة في النفوس فهي مكان خطر مترامي الأطراف ملئ بالغدر ومشيع بحرارة الشمس المحرقة ولكنه يؤدي بنا في نهاية المطاف إلى المكان المنشود» (الجيوسي، ١٩٩٢، ص ٤٠).

يقول أكرم زعيتر: «التقينا في دمشق أنا وبدوي الجبل وعبدالكريم الكرمي وأذكر أن أبا سلمى أهدى لبدوي الجبل (الفلسطينيات) فقرأ بعضها ثم تناول القلم والورق ودبج إن شعرك كالعطر، أرجه يثني عليه، ويهدي إليه. حزن شعرك على فلسطين حزن هادئ وجيع، إنه حزن الثاقلات لا حزن النائحات. جمال شعرك في حزنه إنه لا يلطم الصدور ولا يبالغ في الصراخ بل هو حزن هادئ؛ لأنه عميق ومحجب لأنه صادق وسريع العبور إلى الضمائر لأنه نابع من ضمير» (الفار، ١٩٨٥، ص ٣٩).

وعن مكانة أبي سلمى في الأدب المقاوم الفلسطيني، يخاطب محمود درويش أبا سلمى قائلاً: «أنت الجذع الذي نبتت عليه أغانيها، نحن امتدادك وامتداد أخويك اللذين ذهبوا إبراهيم وعبدالرحيم الذي قاتل بالكلمة والجسد، لا لسنا لقطاع إلى هذا الحد. إننا أبناؤكم لقد كنت شاعر المقاومة قبل اكتشاف النقاد لهذا التعبير» (الكرمي، ١٩٧٨، ص ٥). ويقول حسام الخطيب «إن أبا سلمى كان رجلاً في أمة وأمة في رجل» (بيلتو، ١٩٨٧، ص ٦).

الخاتمة

إن شعر المقاومة في فلسطين حصيلة ثمينة لمحاولات موضوعية شغلت بال الكُتاب والشعراء الفلسطينيين نحو تسعين سنة. وكان عبدالكريم الكرمي واحداً من جيل الشعراء الرواد الذين سجلوا بأمانة وصدق أحداث البلاد قبل النكبة وأسهموا بالكلمة الحرة الجريئة في قضايا شعبهم وأمتهم. وكما أنه من جيل شعراء المقاومة فهو أيضاً من جيل الفردوس المفقود عاش هموم شعبه قبل النكبة وتجرع مرارة الغربة يصدر عن شعور إنساني صادق ووعي عميق بالأبعاد الحقيقية لأزمته باعتباره فلسطينياً واكب النكبة مرحلة بعد مرحلة وسجل أحداثها بعمق وواقعية.

والمحور الوطني الذي تشرب رائحة الأرض بكل معطياتها الطبيعية والنفسية رامتاً بالحبيبة للوطن، كان له أثر كبير في تطور شعر عبدالكريم الكرمي. نجده حين يتصدى لمفاهيم الثورة والجهاد يتغنى بالحب للأوطان، لذا فإن شعره يكاد ينفرد بالتصاقه بالأرض وتشبثه بالقرية والمدينة والشارع وما تحمله تلك الأماكن من أسماء اقترنت بلحظات وذكريات خالدة ظلت تعيش في مخيلة الشاعر.

وتأخذ فلسطين حجمها الحقيقي في شعر أبو سلمى وتظل همماً قومياً. إنه لا يقزم قضيته بل يعطيها بعدها بكل عمقه وشموليته، وشعر العروبة والأمة وشعبها وحاكمها من أكثر الدوائر اتساعاً في الشعر أبي سلمى.

فشعر أبي سلمى يكاد يكون سجلاً للنكبة بكل أبعادها وما ترتب على نتائجها من أحداث كان لها وقعها الكبير في ضمير الشاعر وإن أهم ما يميز لغة أبي سلمى الشعرية هي البساطة والوضوح مع حدة نابغة من إحساسه بمرارة النكبة. والعاطفة هي المنهج الرئيسي لكل عطائه الشعري.

لقد شكّل عبدالكريم الكرمي ظاهرة حية في الشعر الفلسطيني فهو فلسطيني نفسها وهو القضية بجميع مراحلها وشعره هو فلسطين ذاتها أرضاً وشعباً وقضية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأسطة، عادل (٢٠٠٨م). *أدب المقاومة من تهاؤل البدايات إلى خيبة النهايات*. ط٢، دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة.
٢. الأيوبي، ياسين (١٩٨٩م). *فصول في نقد الشعر العربي الحديث*. دمشق: منشورات إتحاد الكتاب العرب.
٣. بيلتو، غادة أحمد (١٩٨٧م). *أبو سلمى حياته وشعره*. دمشق: المركز القومي للدراسات والتوثيق.
٤. الجيوسي، سلمى الخضراء (١٩٩٢م). *الأدب الفلسطيني الحديث*. نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا.
٥. _____ (٢٠٠١م). *الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث*. ترجمة عبدالواحد لؤلؤة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
٦. الخفاجي، ابن سنان (١٩٨٢م). *سرّ الفصاحة*. بيروت: دار الكتب العلمية.
٧. السوافيري، كامل (١٩٧٣م). *الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
٨. صالح، فخري (١٩٩٩م). *أبو سلمى التجربة الشعرية*. ط٣، القاهرة: دار المعارف.
٩. ضيف، شوقي (١٩٦٢م). *في النقد الأدبي*. ط٢، القاهرة: دار المعارف.
١٠. عطوات، محمد عبدالله (١٩٩٨م). *الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر*. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
١١. الفار، مصطفى محمد (١٩٨٥م). *الشاعر أبو سلمى أديباً وإنساناً*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١٢. الكرمي، عبدالكريم (١٩٧١م). *من فلسطين ريشتي*. بيروت: دار الآداب.
١٣. _____ (١٩٧٨م). *ديوان أبي سلمى*. بيروت: دار العودة.
١٤. مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (١٩٩٥م). *معجم البابطين لشعراء العرب المعاصرين*. الكويت: مؤسسة البابطين.
١٥. نويهض، عجاج (١٩٨١م). *رجال من فلسطين*. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة.